

نشرية ادبيات تطبيقية (علمي - پژوهشي)

دانشکده ادبيات و علوم انساني

دانشگاه شهيد باهنر کرمان

سال ۵، شماره ۹، پاییز و زمستان ۱۳۹۲

الاغتراب في شعر جميل صدقي الزهاوي و ناصر خسرو القبادياني*

عباس يداللهي

دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عرب دانشگاه اصفهان

دکتر سردار اصلانی

استاد یار دانشگاه اصفهان

ملخص

الاغتراب من المفاهيم العريقة في الأدب الذي نشأ نتيجة التدهور في الأوضاع السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية في المجتمعات البشرية. يستهدف المقال دراسة الاغتراب، مفهومه و بواعثه و أصداءه في شعر جميل صدقي الزهاوي - الشاعر العراقي الحديث - و ناصر خسرو القبادياني - الشاعر الايراني الشهير في القرن الخامس الهجري. قد عاش الشاعران في بيئة حفلت بالصراعات السياسية و الفكرية و العقيدية و التزمت الديني مما هيأ الأرضية لظهور الاغتراب و الانزال في شعرهما. اعتمدنا في المقال على دواوينهما الشعرية لتحليل الاغتراب و تمثيل نماذجه لديهما. أخيراً خلص البحث إلى أن العاملين الهامين قد أسهما أعظم إسهام في نزوعهما نحو الاغتراب؛ هما الذين و السياسة. من ثم حفل شعرهما بالثورة و التمرد على الأعراف السائدة و النظام الحاكم. اتخذ الشاعران مسلكين متباينين في الحياة تخلصاً من مرارة الاغتراب. اختار الزهاوي التنحي و الابتعاد و إن كان لم يستطع أن يمتنع من الحضور في الأوساط السياسية و مناصبها و خضم أحداثها. اختار ناصر خسرو مسلك الزهد و التنسك رجاء التخلص من لسعة الغربة و صخب الحياة. من أهم أصداء الاغتراب في شعرهما، الاغتراب الديني، المكاني، الاجتماعي و الروحي و السياسي. الكلمات المفتاحية: الاغتراب، جميل صدقي الزهاوي، ناصر خسرو القبادياني، الأدب المقارن.

تاريخ پذیرش نهایی مقاله: ۹۱/۶/۲۱

yadollahi_a@yahoo.com

* تاریخ ارسال مقاله: ۹۰/۱۰/۱۳

نشانی پست الکترونیکی نویسنده مسئول:

غم غربت در شعر جمیل صدقی زهاوی و ناصر خسرو قبادیانی

چکیده

غم غربت از جمله موضوعات کهن در ادبیات است که در اثر نابسامانی اوضاع سیاسی، اجتماعی و اقتصادی در جوامع بشری شکل گرفته است. این پژوهش به بررسی مفهوم غم غربت، انگیزه‌ها و بازتاب های آن در شعر جمیل صدقی زهاوی - شاعر معاصر عراق - و ناصر خسرو قبادیانی - شاعر ایرانی سده پنجم هجری - می‌پردازد. هر دو شاعر در محیطی زندگی کردند که مملو از درگیری های سیاسی و فکری و تعصب دینی بود که در نتیجه آن، زمینه پیدایش غم غربت را در شعرشان فراهم کرد. در این پژوهش، برای تحلیل غم غربت و ارائه نمونه‌های آن به دیوان‌های شعری هر دو شاعر تکیه کردیم. این گفتار در نهایت به این نتیجه دست یافت که دو عامل مهم در گرایش این دو شاعر به غربت در شعرشان تأثیر زیادی داشته است: دین و سیاست، و از اینجاست که شعر این دو شاعر سرشار از طغیان و ستیز در برابر رسوم حاکم بر جامعه و نظام سیاسی است. این دو شاعر برای رهایی از تلخی غربت دو روش متفاوت را برگزیدند؛ زهاوی کناره‌گیری و عزلت را برگزید؛ اگر چه نتوانست از حضور در محافل سیاسی و بحبوحه حوادث آن خودداری کند. ناصر خسرو نیز برای رهایی از تلخ کامی غربت و هياهو زندگی، زهد و پارسایی را برگزید. از مهمترین بازتاب های غربت در شعرشان می‌توان به نمونه‌های زیر اشاره کرد: غربت دینی، مکانی، اجتماعی، روحانی و سیاسی.

واژه‌های کلیدی: غم غربت، جمیل صدقی زهاوی، ناصر خسرو قبادیانی، ادبیات تطبیقی.

۱- مقدمه

الأدب المقارن (Comparative Literature) هو المنهج الذي يتناول الكشف عن صلات التقارب و التشابه بين الأدبين أو أكثر ابتغاء تقريب الآداب القومية و العالمية من مجالات الأحاسيس المشتركة و المتبادلة كي يخلد الأدب كتراث حيّ بين الشعوب و الأمم. يوجد ترابط و صلات متشابكة بين الآراء و الأفكار في كلّ زمان و مكان و لايمكن أن يفهم حادثة ما أو تيار ما بصورة كاملة دون الإحاطة بالأحداث الأخرى. الأدب المقارن يمكن القارئ أو الباحث المقارن أن ينظر إلى العمل أو الجنس الأدبي منفصلاً عن الظروف البيئية أو الزمانية أو المكانية التي ظهرت فيها تلك الأجناس الأدبية دون النظر إلى الحدود الإقليمية مستهدفاً فهم و تذوق ذلك الجنس الأدبي مساهماً في بناء ماضي الشعوب. تستهدف الدراسات المقارنة تبيين ما هو أصيل من غيره للكشف

عن مكانة التأثير و التأثير في الدراسات الأدبية و دورهما في إثراء الأدب و تنمية المواهب الأدبية (علوش، ١٩٨٧م، ١٣).

الاغتراب (Alienation) من الموضوعات العريقة في الأدب التي تحتوي على البعد و الشعور بالوحدة في الحياة و إن كان الانسان يراود أبناء جنسه و من ثمّ ليس ظاهرة جديدة ظهرت إثر التحولات الأدبية و السياسية في الآثار الأدبية، بل ظاهرة قديمة قدم الانسان على الكرة الأرضية؛ فمنذ إخراج آدم (ع) من الجنة أخذت بوارق الاغتراب تلمع في صفحات الحياة الانسانية. اذا حاولنا الكشف عن جذور الاغتراب في الأدب العربيّ نرى أنّها كمنبت في مطالع القصيدة الجاهليّة عقب حنينهم إلى الأوطان و وصف الأطلال و الدمن و الوقوف عليها و البكاء على رسومها المدرسة. يُعدّ الملك الضليل من الشعراء الجاهليين الذي أكثر من ترداد الاغتراب في شعره قائلاً:

أ جارتنا، إن المزار قريبُ و إنّي مقيمٌ ما أقام عسيبُ
أ جارتنا، إنّا غريبانِ ها هنا، و كلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ
(امرئ القيس، ١٩٨٩م، ٣٥٦)

إنّ الاغتراب يشير في طبيّته إلى الانسلاخ و الانعزال و الانفصال عن المثل السائدة و أعراف المجتمع الانسانيّ. بناءً على هذا، يشعر المغترب بالانطواء على النفس. يعبر هذا الشعور عن هروب الانسان من الواقع و اللجوء إلى عالم خيالي للعثور على فقدان ما في الحياة من الآمال و الطموحات، لهذا نرى في شعر الشعراء المغتربين أنّهم يقعون في عواصف شديدة من التناقض و التعارض و الاصطدام بين الحياة الواقعيّة و الخياليّة و بصورونها كما يتوقعون.

تفاقت هذه الظاهرة في الأدب العربي الحديث نتيجة التطورات الفكرية و السياسية و اعتناق المذاهب الفلسفية المختلفة و ورودها في مجال الأدب و تعرّف الشعراء على الانتاجات الغريبة خاصة في مجال الفلسفة. قد تأثر الشعراء المعاصرون بالفكر الغربيّ عامّة ... و نفذت آراءه في الشرق العربيّ في القرنين التاسع عشر و العشرين (عبدالفتاح ملحس، د.ت، ٢٨٥).

حاولنا في هذا المقال أن نسلط الأضواء في إطار الأدب المقارن على ظاهرة الاغتراب في شعر الشاعر العراقيّ الحديث، جميل صدقي الزهاويّ، و الشاعر الايرانيّ الشهير، ناصر خسرو القباديانيّ الذي عاش في القرن الخامس الهجريّ، عثوراً على أصداء الاغتراب، مفهومه، بواعثه و موضوعاته في شعرهما. إنّ الذي حملنا على اختيار الموضوع هو القواسم المشتركة التي نراها عند الشعارين و ترمدهما على الواقع و طموحهما إلى بناء مجتمع مثاليّ و نموذجيّ و من أجل ذلك نستطيع أن

نعتبرهما من رواد فكرة الاحتجاج في الأدبين العربيّ و الفارسيّ. اذا القينا نظرة إلى ديوانهما الشعريّ نرى أنّ العاملين الهامّين قد أثرا في تكوين الشّعور بالغربة و العزلة لديهما و هما السياسة و الدّين. المراد بالسياسة هو ما أشاعت الدول السائدة في عصرهما من الفساد و التهم، و المراد بالدين اتّخاذ المعتقدات الدينية كأداة للقتل و سفك الدماء و تشريد المخالفين و كبت الحرّيات. ممّا لا ريب فيه أنّ الشاعرين قد عاشا في بيئة مليئة بالجور و الظلم و التزمّت الدّينيّ و كلٌّ من خرج عن المألوف رُمي بالزندقة و الإلحاد بينما كان الاستبداد مضرّياً على بلديهما. قد اعتمدنا في هذا المقال على المصادر الأدبية و التاريخية للكشف عن جذور الاغتراب و أصداءه و بواعثه لديهما. أما الدراسات التي تطرقت إلى هذه الظاهرة في شعرهما فهي لم تجر دراسة أو مقالة تناولت الموضوع خاصة في إطار الأدب المقارن. من المفترض في المقال أنّ الشّعور بالاغتراب عندهما ظهر نتيجة البواعث الاقتصادية و الشخصية و الاجتماعية لتصور رفضهما الواقع و اللجوء إلى عالم خياليّ مصطنع.

٢- الاغتراب من منظور اللغة و الاصطلاح

يتبيّن مما سبق أنّ الاغتراب يعبر في تضاعفه عن عدم الرضا و رفض الرّسوم المنظمسة السائدة و محاربتها و انزال الفرد عن المجتمع و سلوكه مسلك الثورة و التمرّد و الاحتجاج، لأنّه يرى مسافة شاسعة بين الواقع و المطلوب. الاغتراب، لغةً الابتعاد و التّحنّي عن الوطن و كذلك الغربة و الغُرب و التّغُرب (ابن منظور، مج ١٩٨٨، ١٠، مادة غ ر ب). من جانب المصطلح هو التّزوج عن الموطن أو البعد أو الانفصال عن الآخرين و هذا يمتّ بصلّة وثيقة إلى المعنى الاجتماعيّ الذي يتّضح من خلاله أنّ هذا الانعزال و الابتعاد لا يمكن أن يتجلّى من غير أحاسيس نفسية كالخوف و الحنين و القلق تكوّنه أو ترافقه أو تنتج عنه (رجب، ١٩٧٨، ٤٣). قد عرفه الآخرون بأنّه «حالة نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً و بعيداً عن واقعه الاجتماعيّ» (إديث، ١٩٩٣، ٣٦٩).

٣- نظرة إلى حياة الزهاوي و عصره

ولد جميل صدقي الزهاوي (١٩٣٦م - ١٨٦٣م) في منطقة «سربل ذهاب» من أعمال كرمشاه بايران. بعد مدة ألقى عصا التسيار في العراق و هناك نما و نشأ. اذا أدقنا النظر في الظروف التي عاشها الشاعر نرى أنّ بيئته حفلت بالجور و الظلم و الاستبداد و التزمّت الدّينيّ من قبل الدولة الحاكمة و كسدت سوق العلم و الأدب. ترعرع في بيئة ضاعت فيها مصادر العلم و نضبت و أثار حفيظة الشاعر ما استحوذ على الآراء من الجمود. لم تأنس روحه الناهضة بهذا الانحطاط، و من جرّاء ذلك شنّ على العادات البالية التي سيطرت على الأقلام و العقول (العوادي، ١٩٨٥، ١١١).

يتبين لنا أن الحكم الجائر و ما يعقبه من الاختناق و كبت الحريات و عدم الاكتراث بالأدب و الأدباء من البواعث التي ساقط الشاعر نحو العزلة و الغربية و إن كان يعيش المجتمع. اغلقت أبواب الفكرة الحرة و إبداء الآراء فيه و راج الظلم و التشريد و التقتيل ضد الأبرياء و منورى الفكر و تورط العراق في الدياجير و «يتخبط في وجوه الخانق المشيع بالظلم و الإرهاب و قد انتشرت الرشوة و اغتصاب الأموال من قبل الموظفين» (قاسم ناصر، ٢٠٠٤م، ٩٥). كثرت طيلة حياته الصراعات بين الفرق و المذاهب الفلسفية و الكلامية و اختلف الشاعر اليها. لاتزال الصراعات الفكرية و العقيدية على قدم و ساق بينها و تردد الشاعر فيها و تورط في مهاوى الشك و الترديد و تكوّن في نفسيته «صراع متواصل بين العقيدة الدينية التي يريد التمسك بها و التيارات الإلحادية التي كان يميل اليها و هذا الصراع ألقه و عرضة لصعوبات جمّة» (الفاخوري، ١٩٩١م، ٤٥٦). الاحتلال الأجنبي من قبل الإنكليز و الدولة العثمانية هو العامل الآخر الذي أثر في نزوعه نحو الانطواء على النفس، لأنه رأى موطنه في براثن الأعداء و أخذ يتبه الشعب على خيانتهم و موافقتهم المزورة و المصطنعة و اتخذ أدبه سلاحاً لمحاربة الدولتين.

٤- نظرة إلى حياة ناصر خسرو القبادياني و عصره

يُعدّ ناصر خسرو القبادياني من الشعراء الإيرانيين في أواخر القرن الرابع و بداية القرن الخامس الهجري الذي تالّأ نجمه في سماء الأدب الفارسيّ و ذاع صيته. ولد الحكيم ناصر بن خسرو بن حارث القبادياني المروزيّ المكنى بأبي معين و المتخلص بـ «الحجة» سنة ٣٩٤هـ في قباديان من أعمال بلخ و أخيراً تُوفّي سنة ٤٨١هـ في قباديان ببدهخشان (صفا، ١٣٦٦م، ٢٠٤٥٢). إذا أمعنا النظر في أحداث حياته نرى أن العاملين الرئيسيين قد أسهما في شعوره بالانعزال و الغربية؛ هما الدين و السياسة. إذا قارنا بين حياة الشاعرين نرى قواسم مشتركة فيها من الاستبداد و الجور و التقتيل و التشريد و شيوع التهم كالزندقة و الإلحاد. عاش ناصر خسرو في عصر الاستبداد الذي أُستبدل التعصب و التزمّت بالعقل و الحكمة و تدخلت الحكومة في جميع شؤون الناس لاسيما العقائد الفردية و اضطرت الناس على فعل ما يؤدي إلى الحصول على أهدافهم و مقاصدهم مرّتين في سلوكهم. اشتغل العلماء و منوروا الفكر بمدح الأمراء و الملوك بدل الإقبال على الحقيقة. عصر لا يُعدّ العقل و التعقل متاعاً مرغوباً فيه و يُنظر بعين الإكراه (نفسه، ٢٣٥). فقد وقف الشعراء في عصره أدلة أمام أبواب الملوك و ذوى القدرة و وظّفوا شعرهم لمدح الحكام و السلاطين لأغراض مختلفة إمّا للتكسب و إمّا لتشويه حقائق يعرفها الجميع. قد عاش الشاعر مجتمعاً لم يجد فيه أجوبة مقنعة على أسئلته حول القضايا الدينية و كلّما بحث عن أجوبته واجه الأدلة الفارغة و التّهكّم و المحاكاة العمياء

و انسدت الأبواب أمامه. عندما قنط الشاعر من العثور على ضالته ألقى عصا التسيار في القاهرة، عاصمة الفاطميين، و تعرف هناك على معتقدات الديانة الإسماعيلية. بعد مدة تزهد و تنسك و صار من دعاة الإسماعيلية و تلقب بـ «حجة خراسان» و أمر بتبليغ أسسها الفكرية. عندما رجع إلى بلده اضطره الحساد و المترمتون و رموه بالزندقة و الإلحاد و اضطروا أن يهاجروا و عيّلته إلى «يُمكنان» ليتخلص من أذاهم. من أجل ذلك حفل شعره بالاحتجاج و الثورة و التمرد مما جعل أحد النقاد أن يعتبره «أشجع ممثل لفكرة الاحتجاج في الأدب الفارسي» (اسلامى ندوشن، ١٣٥٥، ٥٠). إن أدبه هيأ الأرضية لظهور فكرة الثورة و التمرد في الأدب الفارسي. اذا أمعنا النظر في شعر الزهاوى و القباديانى نواجه أوجه مختلفة من الاغتراب؛ منها الاغتراب الدينى، المكانى، الاجتماعى، الروحى، الزمانى، العاطفى و السياسى. لكن المقال لايسع المجال للتطرق إلى جميع هذه الأنماط بل نتناول أبرزها و أهمها.

٥- اهم اصداء الاغتراب

٥-١- الاغتراب الدينى

اول ما يبدو لنا فى تضاعيف أشعارهما من الاغتراب هو الاغتراب الدينى و العقيدى الذى نشأت جذوره من خلال الغور فى النحل الفكرية المختلفة. اما فى شعر الزهاوى فقد تكون هذا النوع من الاغتراب إثر دراساته العميقة فى الانتاجات الأدبية الغربية خاصة فى الفلسفة و أثرت بشكل مؤثر فى تشكيل منظومته الفكرية و الثقافية و اتجأه نحو التعبير عن ظاهرة الاغتراب التى كان يواجهها و يعانىها بنفسه. انكب منذ ريعان شبابه على قراءة آثار «فانديك» و الكتب الأخرى فى الفسيولوجيا و التشريح و العلوم العصرية (الرشودى، ١٩٩٦م، ٣١). هذا الأمر غرس بذور التردد و الشك فى قضية الدين و المعتقدات الدينية فى كيانه. اذا ألقينا نظرة إلى شعره خاصة إلى حماسته الشهيرة «ثورة فى الجحيم» نرى أن الشك و مخالفة الأعراف السائدة فى مجتمعه و الدعوة إلى تحرير المرأة و رفض الحجاب بلغ ذروته فيها. سافر الشاعر فيها إلى عالم خيالى مصطنع و بث فكرة الحيرة فى الدين و ما يتصل بحياة الانسان بعد النشور فى الحياة الأخرى. هذه الحماسة أثارث ضجة عنيفة بين الأوساط الدينية مما عرضه لتهمة الزندقة و الإلحاد. نستطيع أن ندرك من شعره أن التأزم فى القضايا السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من أهم الأسباب فى تكوين اغترابه الدينى و العقيدى، لأن الحكومة السائدة اتخذت الدين و الأسس الدينية ذريعة لكبت الحريات و نشر الاختناق و التخويف. اذا أدقنا النظر فى الظروف السائدة على المجتمع العراقى لانرى شيئاً سوى الركود و التخلف و الانحطاط الخلقى، لأن شعراء العراق الذين ترعرعوا فى القرن العشرين كانوا فتحوا عيونهم على

حقيقة مليئة بالركود و التخلف، حقيقة تعاني من الهبوط الروحي و المادّي يكاد يعمّ جميع شؤون الحياة (العوادي، السابق، ١١١). بما أن الزهاوي قد اعتمد في فكرته الدنيّة على مبدأ الحس و العقل يمكن لنا أن نعتبره من العقلانيين الذين اتّخذوا العقل و الشعور معياراً لكل شيء، لكنّه لم يحصل على شيء سوى اللأدرية و اختار الشك و التردد أفضل مخرج للنجاة من دوامة الاغتراب. نعتبره من رواد الشك و التأمل في الأدب الحديث. إسمعه يقول:

لا تقبلوا في الدين ما يروونه
إنّ اليقين في الشهود جميعاً
إنّما صحت في الأنظار
و الشك كل الشك في الأخبار
إنضوا القديم و بالجديد توشّحوا
و تملّصوا من نير كل خرافة
و تحرّروا من قيد كل عقيدة
سوداء ما فيها هدى للسارين

(الزهاوي، ١٩٧٢م، ٤٢٢)

مما لا ريب فيه أنّ الشاعر استخدم أدبه للكشف عن مظالم الدول السائدة في عصره لاسيّما الدولة الانكليزية و العثمانية. عندما نقرأ من شعره ما يتعلق بتحرير الوطن و تحريض الشعب العراقي على الجهاد و مناضلة الأعداء، اصطبغ شعره أحياناً بالتشاؤم و القنوط، لأنّ الشعب لم يرافقه كما شاء. عندما رأى مشاهد القتل و التشريد و استغلال الدين ازدادت حيرته و غربته على ما جرى في المجتمع. نعتبره ناقداً اجتماعياً حفل شعره بالانتقادات الاجتماعية و السياسية و الأفكار المبتغزقة و قصصه الشعريّة تدلّ على أنّه صور فيها صورة المجتمع المليء بالفساد و الجور و الخنق. يشير توظيف القصة الشعريّة إلى مدى توسيع الاستبداد و الكبت و التعقيب طيلة حياته.

يطول بالشاعر التأمل في غاية الحياة و ما جبل عليه الانسان من الخصائص في النظام الكوني، فتواردت عليه تلك الأسئلة الخياميّة فتشابه على القاريء هذان الشاعران اللذان اشتهرا بنزعاتهما التأملية، و من ثمّ نراه يعتصم بالنفس، لعلّها تروى غلته و تُزيل حيرته. يريد منها ملتمساً أن تُخبره عن ماهية الروح فتجيب على هذه الأسئلة: من أين أتى، إلى أين يذهب، ما غاية الله من خلق الدنيا و ما فيها قائلاً:

أخبريني يا نفسُ من أنا
ماحياتي، و غايةُ الله منها
أنت منّي، ما مبدئي، ما معادي؟
ما وجودي و القصدُ من إيجادي؟
كيف جاءت تقوى الإرادة فينا
ما علاقاتُ الروح بالأجساد؟

عَلَّمِنِي بِمَا بِهِ لَكَ عِلْمٌ فَلَعَلِّي يَا نَفْسُ أَلْقَى رِشَادِي
(الزهاوی، ۱۹۳۴م: ۲۵۲)

أما الاغتراب الدینی فی شعر ناصر خسرو فقد ظهر من خلال عدة عوامل، من أهمها التلاعب بالدين من قبل الغزنويين و السلاجقة و من أجل ذلك اقلقت الأبواب أمام حرية الفكر و القول و خيم الاستبداد و التزمّت على البلاد. بما أنّ ناصر خسرو كان في عنفوان شبابه موظفاً للدولة الغزنوية، بعد مدة انسحب عن الوظائف الحكوميه إثر صحوة روحية و بدأ سفرة استغرقت سبع سنوات نحو الفاطميين. في أثناء سفرته تعرّف على معتقدات الأمم الأخرى و أخيراً اعتنق الديانة الإسماعيلية و صار من مبلغها في مسقط رأسه. عندما رجع إلى «بلخ» طرد و نفى و واجه كثيراً من الأذى و ردود فعل سيئة و في النهاية اتهم بالزندقة من جرّاء تغيير المذهب. اذا أردنا الوقوف على الظروف السائدة على المجتمع خاصة الأوضاع الدينية نرى أنّ الرياء و الفسق و بذخ الحكّام و ترفهم و اغتصاب الأموال كان من أهمّ ميزاته. كان عصره حافلاً بالتعصب الأعمى و الصراعات الدينية المختلفة بين الملل و النحل الفكرية. قد أشار الشاعر إلى نفس الموضوع قائلاً: «إنّ معظم الناس في هذا العصر قد ابتعدوا عن الدين و كسدت سوق الحكمة و فسد مزاج المتشرعين» (يوسفی، مج ۱، ۱۳۷۲، ۲۴۵). تجسّد لنا الشاعر في تضاعيف قصائده باحثاً عن همومه الدينية و الثقافية طالباً طموحاته و تجاربه الذاتية من خلال المجتمع العاجز و يلوم الواقع، و من هذا المنطلق يدعو إلى الإصلاح الخلقى و الديني في جميع المستويات. لذلك يصوّر لنا مجتمعه مليئاً بالغدر و معاقرة الخمر و اكتناز المال و الرياء و يقول:

همچو شب دنیا دین را شبست ظلمت از جهل و ز عصیان سحاب
خلق نبینی همه خفته ز علم عدل نهان گشته و فاش اضطراب
اینکه تو بینی نه همه مردمند بلکه ذئابند به زیر ثیاب
کرده ز بهر ستم و جور و جنگ جنگ چو نشییل و چو شمشیر ناب
خانه خمار چو قصر مشید منبر ویران و مساجد خراب
.. حاکم در خلوت خوبان به روز نیم شبان محتسب اندر شراب
خون حسین آن بجشد در صبح وین بخورد ز اشتهر صالح کباب
... این شب دینست، نباشد شگفت نیم شبان بانگ و فغان کلاب

(قبادیانی، ۱۳۵۷: ۱۴۱)

أى: اسودّ الدين كظلمة الليل إثر الجهل و سُحِب العصيان. انصرف الناس عن العلم و انطمس العدل و شاعت الثورة و الفتنة. هؤلاء الذين تراهم ليسوا أناساً بل لبسوا ثياب الذئاب. قد استعدّ الناس لمحاربتى ظلماً كسنة الصيد و الصمصام. صارت بيوت الخمر قصرًا مشيداً و خربت المنابر و المساجد. إنّ الحاكم في خلوة الغواني نهاراً و في شرب الخمر ليلاً. يشرب هذا من دم الحسين (ع) كالخمر و ذلك يشوى ناقة صالح (ع). لا غرو أن هذه ليلة الدين مليئة بصياح الكلاب.

يظهر لنا من خلال أبياته أنّه عاش بيئة مليئة بالفسق و الفساد و الإقبال على الملذات الدنيوية خاصة من قبل الحكّام و صار الدين نسيّاً منسياً. لكنّ الشاعر وجد الانعزال و الابتعاد أفضل طريق للنجاة. بعد ما انخرط في الإسماعيلية التجأ إلى «بمكان» و اختار الزهد و النسك و خلّص نفسه من صخب الحياة و ترك الدنيا و زخارفها و رافق الزهد بالحكمة في شعره داعياً إلى الدين الحنيف. استطاع الشاعر في هذا المجال أن يكشف عن العلاقة بين عالم الحلم و عالم الواقع الذي اتسم كثيراً من الأحيان بالتصادم و الشعور بالاغتراب و الضياع.

تشرق بوارق النزعة التأملية في شعره بين آونة و أخرى، سائلاً عن سرّ العالم المختوم و غايته داعياً المخاطب إلى التفكير في خلق السموات و الأرض قائلاً:

بنديش كه كردگار گيتي از بهر چه آوريدت ايـدر
بنگر به چه محكمى بيسته ست مر جان تو را بدين تن انـدر
او راست بپاي بى ستونى اين گنبد گرد گرد اخضر
(نفسه، ٩٣)

أى: تفكّر، لماذا خلقك الله. أنظر كيف ربط بشدة روحك بالجسم. خلق السماء الخضراء من دون عماد.

يبدو لنا حسب إمعان النظر في شعرهما أنّ الاغتراب الديني ظهر إثر شيوع المذاهب الفكرية و العقيدية المختلفة في عصرهما و نشوء الصراعات المتضاربة بينها و كلّ يدعو إلى كتابه، و من هذا المنطلق زاد توترهما العقيدى و أخيراً كلا الشعارين لم يحصلوا على إجابات واضحة و مقنعة حول القضايا التي تمتّ بصلة إلى العقيدة، خاصة عند الزهاوي الذي اعتنق الآراء التي تنافي العقيدة الدينية مثل نظرية دارون حول مراحل تكوين الانسان.

٥-٢- الاغتراب المكاني

يمكن أن يحدث للانسان أن يعيش بين أبناء البشر يعاملهم و يراودهم، لكنه يبقى بينهم غريباً و منعزلاً عنهم. هذا الأمر ليس بعجيب، لأنّ الانسان عندما يشعر بأنّ المجتمع لا يوافقه قولاً و فعلاً و فكراً و يحاول الطرد و الكبت و المخاصمة يضطرّ أن ينجو بنفسه حتّى يأمن من الأذى و يستريح باله. نقصد بالغبرة المكانيّة الشعور بذلك الحس الذي يحاول الانسان تصويره عندما ينتقل من مكان إلى مكان آخر لتحقيق آماله و طموحاته مصوراً تلك البلدان التي أقامها و عندما يحلّ بتلك البلاد المغتربة يصاب بخيبة الآمال.

إذا أمعنا النظر في شعر الزهاوى نرى أنّه كان مغترباً بين أبناء جنسه في المجتمع العراقيّ. ينشأ هذا عن تمرده على القيم السائدة على المجتمع و الاتيان بأفكار و آراء لم يكن عهد بها عند المجتمع، كالمطالبة بتحرير المرأة و حضورها النشيط في الأوساط الاجتماعية و السياسيّة و هذا ممّا لم يطابق مجتمعه، و من ثمّ اضطرّ الشاعر أن ينزح عن مسقط رأسه و يقيم بالبلدان الأخرى. يشكو الزهاوى الشعب كثيراً في تضاعيف أشعاره و يعتبر الناس من أعدائه اللد، لأنهم جرّعوه كأس الموت و الأسى. لم ير الشاعر المغترب منهم سوى النهم و الطعن و الطغن و الخزى و من ثمّ يقول:

مقامك في الزوراء غير حميد	و لينك للأعداء غير مفيد
و طُنك حسناً بالأيام سفاهة	و رأيك في الأيام غير سديد
سأرحل عن بغداد رحلة عائف	فقد طال في دار الهوان قعودي
و أخرج من آلى و مالى و موطنى	و ما كان لى من طارف و تليد
و لم أر في عمري كبغداد منزلاً	به العلم لايجزى بغير جحود
رأيتُ بها بؤساً و شاهدتُ نعمة	فلم أسترح من شامت و حسود
و كافحتُ أياماً بها و لياليا	تكرّان من بيض هناك و سود
و عشت فلم يرغد لى العيش عندها	و ما خير عيش لم يكن برغيد
ببغداد ناس راشدون بعلمهم	و قوم من الجهال غير رشيد
... لقد عشتُ بين القوم ستين حجّة	و لم أكُ في يوم بها بسعيد
أشاهد غرباناً بأوكار أنسر	و ألقى ذئاباً فى عرين أسود

(الزهاوى، السابق : ٢١٨)

لا مشادة أن التهم - مثل الزندقة و الإلحاد إثر إنشاد حماسته - التي وجّهت نحو الزهاوي طيلة حياته كانت من البواعث التي دفعته للنزوح و الابتعاد عن الوطن، و كذلك أسهم في اغترابه المكاني فسله في الحبّ و حرمانه من الولد في الحياة و الصراعات العنيفة التي نشبت بينه و بين مواطنه الشاعر «الرصافي» زادت في اضطرابه و قلقه و سدّت الطرق أمامه. لكن الذي يقال هو أن مخالفته الأعراف السائدة و الدعوة إلى إصلاح المجتمع العربي وفق المعايير الغربية كانت من البواعث التي طردت الشاعر من ساحة المجتمع خاصة الأوساط الدينية و يتضح لنا هذا من خلال دواوينه الشعرية.

عندما تلقى نظرة عابرة إلى شعر ناصر خسرو نرى أنه تمتع بهذا النوع من الاغتراب و قد شغل الابتعاد عن الوطن حيناً واسعاً في شعره. عندما اتهم ناصر خسرو بالزندقة و الإلحاد إثر اعتناق الإسماعيلية اضطّرّ و عيلته أن يترك مسقط رأسه لاجئاً إلى «يُمكنان» و يبقى هناك خمس عشر سنة حتى نهاية حياته. يُعدّ «يُمكنان» البطل الوحيد في شعره و أينما ذُكر في الشعر افتخر الشاعر به و نوّه به و لمعت لديه هذه الناحية في سماء الحكمة و الأدب.

قد عبّر الشاعر في «يُمكنان» عمّا فعل به الدهر من مرارة البعد و النوى و عمّا لاقى من الحزن و الأسى من قبل الجهّال و الجبابرة. يقول:

آزده كرد كژدم غربت جگر مرا	گویی زبون نیافت ز گیتی مگر مرا
در حال خویشتن چو همی ژرف بنگرم	صفرا همی بر آید از انده به سر مرا
گویم؛ چرا نشانه تیر زمانه کرد	چرخ بلندِ جاهلِ بیدادگر مرا
گر در کمال فضل بود مرد را خطر	چون خوار و زار کرد پس این بی خطر مرا
گر بر قیاس فضل بگشتی مدار چرخ	جسز بر مقرر ماه نبودی مقرر مرا

(قبادياني، السابق: ١١)

أى: قد أحرق عقربُ الاغتراب قلبي. كأنّ الدهر رآني عاجزاً ضعيفاً. عندما أتأمل أحوالي يغشاني الغمّ. أقول لماذا أصابني الدهر الجائر بسهامه. إن كان قدر المرء في الفضل و الكمال، فلماذا حقّرتني و ازدراني الدهر الوضيع. إن تمحور الدهر على الفضل فليس مكانتي إلا على القمر.

لقد تمكن ناصر خسرو في هذه الأبيات من استخدام التعابير الكمتنزة بالصور الحية دون أي حشو و زيادة من تصوير مدى اغترابه و ما عاناه الشاعر من أهل زمانه و ما يدور عليه الدهر من الجور و السخط لأبناءه.

يتمحور اغترابه المكانيّ حول ما لاقى من مواطنيه من الإيذاء و سلوكهم السيء و الحزن و اختلط اغترابه بالشكوى من الدهر و جوره و بثّ ما فى كوامنه من ألم الفرقة و الوحدة فى «يُمكان» و من ثمّ تحلل من القيم و الثقافة السائدة فى المجتمع و شعر عميقاً بعدم التوافق أو التضارب مع البيئّة و أصيب بنوع من فقدان الاتجاه فى البنية الثقافية و الدينية. لا يزال يذكر بلده و ما حلّ بها من الفساد و التدمير و الأعراف البالية و يذكر أيامه التى قضاها فيها:

بگذر ای باد دل افروز خراسانی بر یکی مانده به یمگان دره زندانی
اندر این تنگی بی راحت بنشسته خالی از نعمت و ز ضیعت و دهقانی
برده این چرخ جفاییشه ببیدادی از دلش راحت و ز تنش تن آسانی
دل پر اندوه تر از نار پر از دانه تن گدازنده تر از نال زمستانی

(نفسه، ٤٣٥)

أى: أيتها الصبا مرّ على السجين بـ «يُمكان». الذى أقام فيه حزينا محروماً من النعمة و الضيعة و التمليك. أخذ الدهر الجائر راحته و رفاهيته. قلبه أحرق و أحزن من نار مليئة بالحبات و الجسم أسخن من القصب اليابس.

يتضح لنا من خلال أشعارهما أنّهما محبان للوطن و السلام و الاستقرار، فحملهما هذا الشعور بالاعتراب المكانيّ و نرى هوة عميقة بينهما و بين أهل زمانهما و بين مجتمع بات الفساد و الانحراف متأصلاً فيه و شعرت نفوسهما النبيلة بالاعتراب عن الناس الذين شملهم الفساد من كل جانب و لم يستطعا التكيف مع البيئّة و واقعها و لم يتمكنوا من تحقيق التوازن النفسى بين الواقع و التطلع إلى المجتمع و آماله المنشودة.

٥-٣- الاعتراب الاجتماعى

إنّ الغربة الاجتماعية و ما تحويه من السخط و الغضب و التمرد تجذرت فى كيان الشاعرين. حينما أمعنا النظر فى شعرهما نرى أنّهما لم يعبرا عن هذه الغربة إلا أن يحفل شعرهما بالتبرّم و الضجر و السامة. فى الحقيقة أنّ هذا النوع من الاعتراب نشأ لديهما إثر الفساد الخلقى و الدىنى الذى انتاب المجتمع. عندما أراد الشاعران أن ينجوا بنفسهما من مآزق الغربة، اتّخذا التهجير و النوى أفضل طريق للنجاة منه، خاصة عند ناصر خسرو مع أنّه فضلاً عن التهجير و ظفّ الزهد و الورع كأداة لتضميد ألم الفرقة و ما تعقبه من الحزن و الإحباط، و من ثمّ ظهرت أنماط الاعتراب الاجتماعى فى شعرهما مثل غربة الناس و الأصدقاء و الأسرة و الأقرباء.

المراد بالاغتراب الاجتماعي هو انفصال الانسان عن المجتمع أو عن الآخرين أو عن القيم و الأعراف السائدة فيه أو عن النظام السياسي و ما يعقب ذلك من الشعور بالألم و الحسرة و الفراق أو بالتشاؤم و القنوط و ما ينطوي عليه من سخط أو ثورة أو نقمة و تمرد (سلامي، ٢٠٠٠م: ١٥١).

إنّ التدهور سياسياً كان أم اجتماعياً أو اقتصادياً، كان من أهم الأسباب في تكوين الاغتراب في الشعر العراقي الحديث و «كان الشعراء ينظرون إلى الوضع العامّ العراقيّ و الألم يعصر قلوبهم و نفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً» (عزالدين، ١٩٦٠م: ١٩٩).

إذا كانت البيئة الاجتماعية لم توافق و فكرة الزهاوي، فإنّه اختار التمرد و العصيان لإصلاح الموجود و الوصول إلى ما هو مطلوب. تجلّت أصداء تمردّه على النظام الحاكم و شنّ هجمات عنيفة على ما ساد المجتمع من الرسوم و العادات البالية داعياً إلى تحرير النساء و السفور و رفض الحجاب متأثراً في هذا المجال بالجمعيات والمنظمات التي أرسنها الدول الغربية في بلده و ما لهذه المنظمات من دور هامّ في إقامة الصلات المتبادلة و الوثيقة بين الشرق و الغرب و الدعوة إلى الإصلاح في الأوساط الاجتماعية. نستطيع أن نعتبر الفشل و الإحباط في الإصلاح احدي بواعث اغترابه الاجتماعي، و من ثمّ صار شعره احدي الوسائل المؤثرة للتعبير عن صرخاته و اضطراره في حياته. ذهب أحد النقاد إلى أنّه يتسنّى للزهاوي أن يذرف الدموع بدلاً أن يخنق و يثور ... «و لو أنّه وجد الجوّه مهيباً للإصلاح و البيئة علميّة أو كالعلمية لنزع إلى الإصلاح و البناء، ولكنّه وجد الجوّه لايتيح له غير التدمير و الهدم» (الحاني، د.ت، ٤٦). شاهد الشاعر طوال حياته عاهات كثيرة انتابت المجتمع، من أهمها التفاوت الطبقيّ الهائل بين فئات الشعب و استثمار الناس. بناءً على هذا، وجد في التفاوت الطبقيّ و استغلال الأفراد للشعب معياراً لمأساة المجتمع (عربية، ١٩٧١م: ١٧٧). إنّ فقدان ما تطمح إليه نفسه «كان إهمالاً لقدره و تجاهلاً لمكانته، فظنّ الزهاويّ بأنّه أصبح كمّاً مهملاً و أنّه سيفقد احترام الناس و تقديرهم» (عزالدين، ١٩٢٢م: ٢٨-٢٧). عندما أخفق حلمه «رفع راية التمرد لإثبات ذاته و لتأكيد شخصيته» (عزالدين، ١٩٨١م: ٦٦).

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ الاحباط الاجتماعيّ من أهم الأسباب التي ساقته نحو الانعزال الاجتماعيّ

و ظهرت أصداءه في دواوينه الشعرية و صبّ غضبه على العراق و مخالفه و لائمه و يقول:

و لم تكن بغداد سوى دار كربة نهاري فيها مثل ليلى مسود
و ربّ عدوّ ليس لي من وصله مناصّ و خلّ ليس من هجره بدّ
و لا مثل يوم ظل يبكي غمامه و يضحك في طياته البرق و الرعد

(الزهاوي، السابق: ٣٧٧)

و أضاف قائلاً:

كم جاهل جاء في بغداد يوسعني
و مظهرين عدا لا إنقضاء له
سبوا و بالسب راموا الحط من أدبي
يزورون على القول من سفه
و قد رموني بالحداد و زندقه
أما السباب فنشء لا يثبطهم

نقداً فأعوزه علم و عرفان
كما تعادى هزار الروض غريان
كأنما السب عند القوم من برهان
فتسمع القول في بغداد آذان
و ما رموني به زور و بهتان
عن نصره الحق إيمان و كفران

(نفسه، ٣٧٥)

يتجسد الشاعر يائساً قلقاً من النشاطات التي قام بها إثر الإحباط و الفشل و يشعر بخيبة الأمل من عدم تحقيق ما يطمح إليه فأثار هذا الموضوع في كيانه السخط و الألم و الشكوى مما ساقه نحو الانطواء على النفس و الشعور بالاغتراب من أبناء جنسه.

أما الاغتراب الاجتماعي في شعر ناصر خسرو فقد تكون في ظلال الدعايات و التهم التي وُجّهت إليه. هذه التهم تنطوي في طياتها على ما تزعم الحكومة الجائرة من تشريد المخالفين و نفيهم و إهراق دمائهم. اتخذ الشاعر أدبه عامّة و شعره خاصة للكشف عن مظالم الدولة و مؤمراتهم ضدّ الناس. امتلأ شعره في هذا المجال بالمضامين الدينية و الحكمة و الحديث النبويّ تبييناً للناس و إنذاراً للحكومة و تخويف الظلمة و المنغمسين في الملذات، و من ثمّ يقول:

دل از افتعال اهل زمانه ملا شدم ز ايشان به قول و فعل ازيرا جدا شدم
تا همچو زيد و عمرو مرا كور بود دل عييم نكرد هيچ كسي هر كجا شدم

(قبادياني، السابق: ١٣٨)

أى: قد امتلأ قلبي من تهم الناس، من ثمّ ابتعدت عنهم قولاً و فعلاً. حينما عشت في التغافل و العبت لم يأخذ على أحدٍ حيثما ذهب.

فقد عبّر الشاعر في هذه القصيدة عن شعوره بالاغتراب عن الناس الذين رجالهم من الفاسدين و الطامعين، فلا بدّ للانسان أن يكون على بصيرة بمكرهم و غدرهم حتى لا يقع في شراكمهم. لقد ألم الشاعر ما جرى في المجتمع من مخالفتهم لتعاليم الدين الحنيف و استعمال النفاق و الرياء، و من ثمّ فوّض أمر الناس إلى ربّهم محاولاً إزالة التهم عن نفسه و سائلاً عن سبب معاداة الناس إياه:

بنالم به تو ای علیم قدیر
چه کردم که از من رمیده شدند
مقرّم به فرقان و پیغمبرت
نگفتم مگر راست، گفتم که نیست
از اهل خراسان صغیر و کبیر
همه خویش و بیگانه بر خیر خیر؟
نه انباز گفتم تو را نه نظیر
تو را در خدایی وزیر ای قدیر
(قبادیانی، السابق: ٤٠٠)

أى: أيها القدیر العلیم، أشکو الیک من الخراسانیین صغیرهم و کبیرهم. ماذا فعلتُ حتی ابتعد
عنی الأقرباء و الغرباء؟. أعترف بالکتاب و النبی (ص) لا شریک لک و لا نظیر. أيها القدیر، لم أقل
إلاّ الصّدق. قلتُ لا إله إلاّ أنت.

خلاصة القول هي أن الاغتراب الاجتماعي هو عجز الشخص عن التكيف مع البيئة و ميزاتها، و
عدم وجود الصلات العاطفية بين الأفراد. في الواقع يظهر هذا النوع من الاغتراب لدى المفكرين و
الذين يتمتعون بنوع من الوعي و الشعور بالمسؤولية أمام مصائب المجتمع و وقائعه و معاناة البشر في
حياته الدينية و المادية، و من ثم يحدث اغترابهم من خلال تحطم الآمال المنشودة في واقع الحياة و
عدم قدرتهم على التكيف مع القيم السائدة، و تجسد هذا من خلال التناقض بين الداخل و الخارج و
الشعور بالفوات و الإحباط و الرغبة في الهروب و الانعزال.

٥-٤- الاغتراب الروحي

يعبر الاغتراب الروحي عن طموح الانسان إلى عالم مثالي نموذجي. حينما يذكر الاغتراب
الروحي يقصد به «تلك الحالة التي يشعر به الفرد بانفصاله من ظرف انساني مثالي فيتطّلع إلى
الاعتناق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه» (محمد راضي، ١٩٩٩م: ٤٥).

إنّ الاغتراب الروحي في شعر الزهاوي تجلّى في نزعاته التأملية حول الحياة و الموت و فناء
الروح أو بقائها و مغبة الانسان في الحياة الدنيا و الحشر و النشور. لا يزال يطرح أسئلة تزيد حيرته،
لكنّه لم يحصل على إجابة مقنعة و تورط في زوبعة من أسئلة دون إجابة. ضرب الاغتراب الروحي
جذوره في القضايا التي تتمحور حول غاية خلق النظام الكونيّ و فلسفة الحياة و الموت و آراءه
الميتافيزيقية. هذا الاغتراب بلغ ذروته في حماسته «ثورة في الجحيم» التي طعن فيها على العقائد
الدينية و الفكرية السائدة على المجتمع العراقي. نراه يُنشد:

بعد أنى أموت فاليد
لك في الموت حين تهلك
فـعـوـا بـى الـى سـقـر
ورد بـلا صـدر

لاتؤمّل تجديداً
أ ترى الروح باقياً
لـزجاجٍ قد انكسر
بعد جسم له دثر
(الزهاوى، السابق: ٥٤٢)

كذلك كشف الشاعر فى ديوانه «اللّباب» عن شكوكه فى الحياة و تطرّق إلى حياة الروح و فنائها بعد موت الجسم. هكذا نراه تشكك فى القضايا الميتافيزيقية. هذا ناجم عن اعتماده على العقل و التّعرف على المذاهب الغربية و غوره فى العلوم الفلسفية. يقول:

رأيت الهدى فى الشك و الشك لا يهدى
فطوراً أقولُ الروحُ كالجسم هالكٌ
فيا لك من شكٍ يبرح بى و لا
و إنى لا أدرى أ رشدى كان فى
أ أفقد جسمى وحده عند ميتتى
أ روح و جسم أم هو الجسم وحده
أعدب حوبائى بما أنا فاكِر
كأنى بالظلماء قد كنت أستهدى
و طوراً أقولُ الهلكُ عنه على بعدٍ
بيارحنى حتى أوسد فى لحدى
ضلالى هذا أم ضلالى فى رشدى
أم الروح مثل الجسم يشمله فقدى
يحركنى فيما يضلُّ أو يهدى
كأنى من أعداء حوبائى اللُد
(الزهاوى، ١٩٢٨: ٤٥)

أمّا الاغتراب الروحى فى شعر ناصر خسرو فقد ظهر فى عقيدته حول الصلة الوثيقة بين الروح و الجسم. من الواضح أنّ ناصر خسرو كان من الشعراء الزهاد فى القرن الخامس الهجرى. اتّخذ الزهد و التنسك مذهباً رئيسياً فى حياته بعد تلك الصحوة الروحية العميقة. إن جذور الاغتراب الروحى لديه تجلّت فى الفكرة التى ذهبت فيها إلى أنّه اعتبر الجسم بمثابة سجن للانسان، فعليه أن يحاول النجاة من هذا السجن المظلم. هذه الفكرة تذكّرنا بعقيدة أبى العلاء المعرى الذى سمى نفسه رهين المحبس أو رهين المحابس الثلاثة حيث قال فى ديوانه «اللزوميات»:

أرانى فى الثلاثة من سجونى
لفقدى ناظرى، و لزوم بيتى،
فلاتسأل عن الخبر النبىث
و كون النفس فى الجسد الخبيث
(المعرى، مج ١، ١٩٨٣: ٢٤٩)

اختلط الدين و ما يتصل به من المفاهيم فى كيان الشعراء المغتربين خاصّة عند الزهاد و النساك الذين تركوا الدنيا و متاعها الزائل و انكبوا على الورع و التقوى و من هذا الموقف يقترب الزهاد من

المتصوّقين و «لا شكّ أنّ الوصول إلى هذا الفهم مرّ بمراحل وصل فيها مفهوم الزهد بصورته البسيطة إلى هذا المعنى الخاص لدى الصوفية عن غربة الرّوح في الجسد بل في هذا العالم (أشرف على، ٢٠٠٢، ٤٥).

مما يجدر الإشارة به هو أنّ ناصر خسرو في كتابه «الرّحلة» أشار إلى أنّه رأى المعرى أثناء سفرته، أمّا المعرى فقد اقبل على الزهد و النّسك و اعتكف في البيت. لعلّه من خلال السفارة تأثّر بآرائه. يعبر ناصر خسرو عن هذه الفكرة في الأبيات التالية حيث يقول:

زندان تو آمد پسرا این تن و، زندان زیبا نشود گر چه بیوشیش به دیبا
دیباى سخن پوش به جان بر، که تو را جان هرگز نشود ای پسر از دیبا زیبا

(قبادياني، السابق: ٤)

أى: يا بنى، إنّ هذا الجسم سجنك و لا يجمل السجن و إن لبستّه بالحرير. ألبس الروح حريراً من الكلام. لا تتزيّن روحك بالحرير أبداً.

يتّضح لنا في تضاعيف شعره أنّه يرى نفسه سجيناً بالمحابس الثلاثة، الأولى الجسم و الثانية الروح و الثالثة هي التي فرّ من أيدي الوشاة و الأعداء و بقي هناك إلى أن تُوفّي و هي «بُمكان».

زندان جان تست تن ای نادان تیمار کار او چه خوری چندین؟
تتین تست تنت حذر کن زو زیرا بخورد خواهدت این تتین
... بنگر که چیست بسته در این زندان زنده و روان به چیست چنین این طین

(نفسه، ٨٩)

أى: أيها الجاهل، إنّ جسمك سجن روحك. لماذا تمرّضه هكذا؟. جسمك بمثابة تتين فاحذر منه لأنّه سيقضي عليك. أنظر إلى الذي مربوط بهذا السجن و بأى شيء يحيى هذا الجسم؟.

ذهب ناصر خسرو إلى رجوع الانسان إلى جبلته الحقيقية و رفض كلّ ما ساد المجتمع من مظاهر الخداع و العشّ و الرياء. انطلاقاً من هذا الموقف، يصل الشاعر إلى عالمه الحقيقي الذي هو بصدده ليتخلّص من مرارة الوحشة و الحرمان و الغربة و ليست هذه الغربة إلّا «محاولة الذات التغلغل في قلب الحقيقة دون أن يمسه ابتذال الواقع و استبطان المحسوس للوصول منه إلى الوحدة الكلّية التي ترتدّ إليها مظاهر الوجود و أعراضه» (احمد، ١٩٧٨: ٣٣٣).

٥-٥- الاغتراب السياسي

كما قيل آنفاً أنّ الزهاوى عاش في عصر استحوذ عليه الجمود في الأفكار و الأفلام و خيم الاستبداد و الاختناق على موطنه، إضافة إلى ذلك لقد عانى الوطن من الاحتلال الأجنبي من قبل الدولتين العثماني و الانكليزي و هذا الأمر أذى إلى مصائب و ويلات كثيرة في البلاد. لقد صور الشاعر في كثير من قصائده حال بلده و ما أصابه من النكبات و الفتن و حاول أن يحارب النظام السائد و شن هجمات عنيفة على النظام العثماني و الانكليزي داعياً الناس إلى الثورة و تقرير المصير، و هذا ما يثبت أنّ الزهاوى قد شبّ تأثراً و صال صولة حرّاً يريد لبلده الاستقلال و حرّيته و هذا الحماس الذى شبّ فيه قد عكّره ظروف الاحتلال فشارك في النضال مشاركة شيخ يميل إلى النصح تارة و إلى الثورة تارة أخرى (الحاني، ١٩٥٤م، ٤٣).

كشف الشاعر في شعره عن المؤمرات و الدسائس التي قامت بها الدول المستكبرة تجاه الناس في العراق خاصة المعاهدات الشكلية التي نظمتها هذه الدول لإقرار الأمن و السلام في البلاد تغطية على الظروف المتدهورة و تخدعة للناس، و من ثمّ بذل جهوداً كثيرة في سبيل تنبيه الشعب المضطهد لتحريرهم من برائن الظلم و الجور، و كان من هذه الطرق كشف الستار عن العهود الأمنية المزوّرة، حيث يقول:

تُلغى معاهدةٌ و أخرى تُعقدُ و الشَّعبُ يستفتى لها و يهددُ
و الشَّعبُ يطرى للجهالةِ خنجراً في صدره عمّاً قريبٌ يُغمدُ
الشَّعبُ بالقيدِ الثقيلِ مكبَّلٌ حتى يكاد إذا تحركَ يقعدُ
(الزهاوى (الف)، السابق: ٤٨٦)

نراه يكشف عما فعلت الدول الجائرة بالناس في إشاعة المثل الذميمة و هتك الحرمات و النواميس و اتخذ هذا ذريعة لإيقاظ الشعب عن نومهم الطويل و تعرفهم على حقوقهم الضائعة، و من ثمّ يقول:

يا غيرةَ اللهِ ابطشى بعصاةٍ ألهاهم الجبروتُ و العصيانُ
فلقد أهين العدلُ فى ديوانه و لقد أهين العلمُ و العرفانُ
و لقد أهينت للمساجدِ حرمةً و أهين فى محرابها القرآنُ
جعلوا الحكومةَ فى البلادِ ذريعةً للغدرِ حتى رجّت البلدانُ

لا شيء يحظى من قلوب سراتهم
بالحب إلا الأصفر الرنان
قوم جفاة ما لهم من رحمة
لو لأن صخر جامد ما لانوا

(نقلًا عن الفاخوري، مج ٤، السابق : ٤٦٥)

مما لا ريب فيه أن هذه الظروف المتدهورة دفعت كثيراً من الأدباء والشعراء نحو الغربية عن أوطانهم كما فعل الشاعر عندما ألقى عصا التسيار في اليمن والآستانة والبلدان النائية الأخرى، لأنّ البلد مليء بالقلق والاضطراب والشعور بالضيق وكان الناس يلتمسون الراحة والاستقرار، ومن هذا المنطلق منهم من يجد راحته في إغراق الهموم في الكؤوس والملذات العاجلة، ومنهم من يجد الأمن والاستقرار في الهروب من قلقه إلى الانطواء والفرار من نفسه إلى العزلة، ومنهم من يجد الراحة في اللجوء إلى الملوك والسلاطين.

يتضح لنا من خلال الأبيات السابقة أنّ انتشار الغدر والخيانة من قبل الحكام والقادة أدّى إلى شعور الزهاوي بالغربة السياسية، وهذا مما دفعه إلى أن ينتقل بين البلاد المختلفة فتشعر بغربة سياسية عميقة، لأنّه لم يكافأ من قبل الحكام بما يستحق من الإكرام وحسن المعاملة، فإن ضاقت الأرض بما رحبت فلم يجد الشاعر المغترب مكاناً يستقبله.

أمّا الاغتراب السياسي عند ناصر خسرو فقد ظهر إثر تمرده على المجتمع والخروج عن دائرته ورفض أعرافه السائدة البالية. لقد رأى الشاعر أن الموازين اختلت وغطت القيم المنحرفة على المجتمع، فلا يرى أمامه سوى الشذوذ والتناقضات التي تدعو إلى الفساد والخصائل الذميمة، حتى يرى أنّ الحق مهجور والعقل وحرية الفكر وبال على صاحبه. إنّ ما رآه الشاعر في المجتمع من التفاوت الطبقي والتقتيل والتشريد كان من المؤثرات التي ساقته نحو العزلة السياسية وسوء الظن بالحكام والنظام السائد. رأى أنّ الحكام بالنسبة إلى مجموع الشعب عدد قليل يعيشون في البذخ والترف وامتلكوا على كلّ ما في البلد من الثروات والنعمة وخصصوا كل شيء لأنفسهم، وللعثور على مقاصدهم اتخذوا الدين والمعتقدات الدينية ذريعة لإشاعة النفاق والجور والظلم وبقية الناس يعيشون حياة الفقر والمسكنة إلا من اتصل بهم في البلاط.

أشار الشاعر في إحدى قصائده إلى ما نشرت الدولة الغزنوية والسلجوقية في المجتمع من الرياء والفساد ابتغاء العثور على أغراضهم السياسية والمادية، ومن ثمّ يصور صورة المجتمع الذي سادته الخصائل الذميمة حيث يقول:

نشگفت اگر نداند جز مکر خلق ايراک
 دجال را نبيني بر امت محمد
 يارانش تشنه يکسر وز دوستي رياست
 بازار زهد کاسد، سوق فسوق رايج
 ترکان به پيش مردان زين پيش در خراسان
 امروز شرم نايد آزاده زادگان را
 آب طمع بيردهست از خلق شرم يا رب
 چيزی نماند جز نام از دين محمد
 گسترده در خراسان سلطان و پادشائي؟
 هر يک به حيلت دعوی کند سقائي
 افکنده خوار دانش، گشته روان مرائي
 بودند خوار و عاجز همچون زنان سرائي
 کردن به پيش ترکان پشت از طمع دو تائي
 ما را توی نگهبان زين آفت سمائي
 (قبادياني، السابق: ٣٣٢)

أى: لا غرو إن لم يعرف الناس سوى الخدعة و لم يبق من الشريعة المحمدية (ص) سوى اسم. أ
 لم تر أن الدجال في أمة محمد (ص) قد بسط الحكومة و السلطة في خراسان؟ و جميع أنصاره في
 أنحاء القطر يتعطشون الرئاسة و يدعون السقاية احتيلاً. كسدت سوق الزهد و راجت سوق الفسوق و
 أحتقر العلم و انتشر الرياء. إن الأتراك من قبل كانوا مزدريين و محترقيرين في خراسان
 كالنساء. لا يخجل الأحرار في يومنا هذا أن يطأطأوا الرووس طمعاً أمام الأتراك. إن الناس
 لا يخجلون من أى شيء طمعاً. ربنا، إنك حافظنا من هذه العاهة السماوية.
 إذا أمعنا النظر في القصائد التي تمت بصلته إلى الاغتراب السياسي في شعر الشعارين، نرى أن
 الاغتراب السياسي في شعر الزهاوي تأثر ببعض المصالح الشخصية بحيث أطلق الشاعر اللسان
 أحياناً في مدح قوات الاحتلال كالانكليز، و نستطيع القول إن الشاعر أراد ببعض قصائده أن يقرب
 نفسه إلى القادة و النظام السائد و كانت ميوله مع الأعداء، فذهب بعض النقاد إلى أن «ميوله و
 أحاسيسه مع الانكليز حتى في أثناء الحرب، و الانكليز آنذاك يغزون العراق و يحتلون أرضه»
 (ناجى، د.ت، ٣٧)، و من نماذج هذا الموضوع يشار إلى الأبيات التالية التي مدح فيها الشاعر الانكليز
 حيث يقول:

وجدتُ الإنكليزَ أولى الاحتشامِ
 فصادقهم تجد أخلاقَ صدق
 إذا بهم إحتمى المدعورُ يوماً
 و يتابع القول في نفس القصيدة قائلاً:
 أباء الضيم حُفَاطَ الذمَامِ
 لهم و الصدقُ من شيم الكرامِ
 رأى منهم له أقوى محامى

أحبُّ الإنكليزَ و أصطفيهم لمرضَى الإخاء من الأنامِ
 جلوا في الملكِ ظلمةَ كلِّ ظلمٍ بعدلِ ضاءِ كالبدْرِ التمامِ
 دكّوا بالسِّياسةِ كلَّ صعبٍ و خاضوا بحرَها و البحرُ طامى
 فقد ساسوا الورى بمضاء همامٍ له في المعضلاتِ شبا الحسامِ
 (الزهاوى ث، ١٣٢٧: ١٤)

يعتبر هذا الموضوع من الأسباب التي زادت في اغترابه السياسي خاصة عندما أحسّ بأنه أخفق فيما توقّع الحصول عليه من قبل الانكليز.

٦- النتائج

يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ الاغتراب و الانعزال تقدّم في الأدب تقدّم الإنسان في الحياة و لا يزال يرافقه و يتجدّد في كيانه. فمذ تكوّنت المجتمعات البشرية وُجد الاغتراب في حياتها. ظهر في العصر الحديث و تطوّر نتيجة التقدّم الصناعىّ و العلمىّ في المجالات المختلفة و الوقوف على المذاهب و الآراء الحديثة خاصة فيما يتعلّق بغاية الحياة و القضايا الميتافيزيقية. قد حصل المقال على نتائج، منها ما يلي:

١- تنوّعت و كثرت فروع الاغتراب في الأدب، منه الاغتراب الدّينىّ و الاجتماعىّ و المكانىّ و الزّمانيّ و الرّوحىّ.

٢- الاغتراب هو الهروب من الواقع المؤلم المحيط بالفرد و اللجوء إلى ما هو مطلوب. هذا ناجم عن التآزم في الأوضاع المختلفة كالاقتصاد و السياسة.

٣- قد أسهمت عوامل عدة في نشوء الاغتراب عند الشعاعين، لكن السياسة و الدّين احتلّا الصدارة بين الأسباب الأخرى. لم يكن الغرض من السياسة و الدين في عصرهما سوى التلاعب و التزمّت و القتل و التشريد و نفى المخالفين و توجيه التّهم، لأنّهما قد عاشا في بيئة حفلت بالصراعات السياسية و الفكرية و النعرات الطائفية. عندما قنط الشعاعان من الإصلاح في المجتمع و باءت جهودهما بالفشل اتخذا الانعزال و التّنجىّ أفضل طريق للوصول إلى الغايات.

٤- اتّخذ ناصر خسرو الزّهد أداة للتخلّص من مرارة الغربة و ألم الفرقة. من ثمّ صار الزهد و التنسك لديه هو الطريق الوحيد للقضاء على لسعة الغربة نراه يملأ شعره بالمواعظ و النصائح و المثل الانسانية السامية.

٥- إنّ الصروف و النوائب التي مرّت بالشاعرين طيلة حياتهما جعلتهما يسخطان على الدهر و يطلقان اللسان على ذمّه و أهله. بناءً على هذا، كثرت في شعرهما ألفاظ تعبّر عن الاكتئاب و

الاعتراب كالفتنة، الثورة، الحساد، الدهر و الخطوب و هذا يصور مدى سخطهما على أبناء الدهر و النظام الحاكم.

٦- قد لعبت الأعراف البالية السائدة على المجتمع دوراً هاماً في اندلاع نيران الغربة و الثورة و التمرد لديهما.

٧- إن تجليات الشوق و الحنين إلى الوطن و أهله تبلورت في شعرهما، و إن كانا بين آونة و أخرى مبتعدين عن المجتمع خاصة عند ناصر خسرو الذي قضى خمس عشر سنة في «يُمكان».

٨- امتاز الاعتراب عندهما بالسذاجة في القول و الكلام بحيث اقتربت لغته من النفس و تخلت عن التعقيد و الغموض و يمثل صورة جلية من الأحاسيس و المشاعر المكبوتة.

٩- قد أثرت تهمة الإلحاد و الزندقة في نزعتهما نحو الاعتراب و الانعزال. بناء على هذا، يصور اغترابهما نوعاً من النقد اللاذع للقضايا الدينية و السياسية و الاجتماعية.

المصادر و المراجع

- ١- إديث، كريزويل، (١٩٩٣م)، تعريف بالمصطلحات الأساسية الواردة في كتاب عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، ط١، الكويت، دار سعاد الصباح.
- ٢- أحمد، محمد فتوح، (١٩٧٨م)، الرمز و الرمزية في الشعر المعاصر، ط٢، مصر، دار المعارف.
- ٣- أشرف على، الدعدور، (٢٠٠٢م)، الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، ط١، القاهرة، دار نهضة الشرق.
- ٤- ابن منظور، جمال الدين محمد، (١٩٨٨م)، لسان العرب، مج ١٠، نسقه و علق عليه على سيرى، ط١، بيروت - لبنان، دار إحياء التراث العربي للطباعة و النشر.
- ٥- اسلامى ندوشن، محمد على، (١٣٥٥)، «بيوند فكر و شعر در نزد ناصر خسرو»، يادنامه ناصر خسرو، مشهد، دانشگاه فردوسی.
- ٦- امرى القيس، (١٩٨٩م)، الديوان، تحقيق حنا الفاخوري، ط١، بيروت، دار الجيل.
- ٧- الحانى، ناصر، محاضرات من جميل صدقي الزهاوي حياته و شعره، مصر، د.م.ن، ١٩٥٤م.
- ٨- رجب، محمود، (١٩٧٨م)، الاعتراب، مج ١، الإسكندرية، منشأة المعارف المصرية.
- ٩- الزهاوى، جميل صدقى (الف)، (١٩٧٢م)، ديوان الزهاوى، بيروت، دار العودة.
- ١٠- ----- (ب) (١٩٢٨م)، اللباب، بغداد، مطبعة بغداد.
- ١١- ----- (ت) (١٩٣٤م)، الأوشال، بغداد، مطبعة بغداد.
- ١٢- ----- (ث) (١٣٢٧ هـ)، الكلم المنظوم، بيروت، الأهلية.

- ١٣- سلامي، سميرة، (٢٠٠٠م)، الاغتراب في الشعر العباسي القرن الرابع الهجري، ط١، دمشق، دارالنبيع.
- ١٤- صفا، ذبيح الله، (١٣٦٦)، تاريخ ادبيات در ايران، ج ٢، چاپ هشتم، تهران، فردوس.
- ١٥- عزالدين، يوسف، (١٩٦٠م)، الشعر العراقي الحديث و أثر التيارات السياسية و الاجتماعية فيه، مصر، دارالمعارف.
- ١٦- ----- (١٩٨١م)، في الأدب العربي الحديث، ط٣، بيروت، دار العلوم للطباعة و النشر.
- ١٧- ----- (١٩٦٠م)، الشعر العراقي الحديث و أثر التيارات السياسية و الاجتماعية فيه، بغداد، مطبعة أسعد.
- ١٨- توفيق لازم، عربية، (١٩٧١م)، حركة التطور و التجديد في الشعر العراقي الحديث منذ عام ١٨٧٠ حتى قيام الحرب العالمية الثانية، بغداد، الأيمان.
- ١٩- العوادي، حسين عدنان، (١٩٨٥م)، لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين و الحرب العالمية الثانية، بيروت، وزارة الثقافة و الإعلام.
- ٢٠- عبدالفتاح ملحس، ثريا، (د.ت)، القيم الروحية في الشعر العربي الحديث، بيروت، مكتبة المدرسة و دار الكتب اللبناني للطباعة و النشر.
- ٢١- علوش، سعيد، الأدب المقارن في العالم العربي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧م
- ٢٢- الفاخوري، حنا، (١٩٩١م)، الموجز في الأدب العربي و تاريخه (الأدب المولد)، مج ٢، بيروت، دارالجيل.
- ٢٣- قبادياني، ناصر خسرو، (١٣٥٧)، ديوان، به اهتمام مجتبي ميني و مهدي محقق، تهران، دانشگاه تهران.
- ٢٤- قاسم ناصر، بتول، (٢٠٠٤م)، تطور الفكر النقدي في العراق منذ نشأته في العصر الحديث الي الحرب العالمية الثانية، ط١، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
- ٢٥- محمد راضي، جعفر، (١٩٩٩م)، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.
- ٢٦- المعري، أبو العلاء، (١٩٨٣م)، اللزوميات، مج ١، بيروت، دار بيروت للطباعة و النشر.
- ٢٧- ناجي، هلال، الزهاوي و ديوانه المفقود، دار العرب البستاني، القاهرة، د.ت.
- ٢٨- يوسف، غلامحسين، (١٣٧٢)، برکهايي در آغوش باد، مج ١، چاپ دوم، تهران، فردوس.